حول معاني حروف المعاني وأصول استعمالها

بقلم : حسن عباس
باحث من سوريا

لمّا كانت الحلقات الإحدى عشرة تشكل وحدة (لغوية ـ تاريخية ـ اجتماعية)، فإنه لابدّ من تذكير القارىء، ولو في لمح، بما انتهينا إليه في الحلقات السابقة(*):

لقد مر الإنسان العربي في جزيرته الأم بمراحل حياتية ثلاث، هي (الغابية، فالزراعية، فالرعوية) قد أبدع خلالها أصول أصوات حروفه تباعا، مرحلة حياةٍ بعد مرحلة.

1. قد ورثنا عن المرحلة الغابية أصول أصوات الأحرف الهيجانية الأربعة، هي : «الهمزة الزمارية، والألف اللينة، والواو والياء الجوفية».وقد اعتمد الإنسان العربي خصائصها الصوتية الهيجانية وطريقة النطق بأصواتها مترافقة بالحركات الجسدية المناسبة، وذلك للتعبير عن حاجاته الغابية المحدودة.
2. ورثنا عن المرحلة الزراعية بزعامة المرأة أصول أصوات الأحرف الإيمائية: «الفاء ـ اللام ـ الميم ـ التاء ـ الذال».

قد اعتمد العربي طريقة النطق بأصواتها مترافقة بالحركات الجسدية المناسبة وذلك للتعبير إيماء وتمثيلا عن حاجاته الحضارية المستجدة في المرحلة الزراعية. وقد استعرضنا في الحلقة (السابعة) خصائص ومعاني ثلاثة أحرف هي:

أ ـ (الفاء)، لمعاني الشق والحفر والتوسع، بما يضاهي طريقة النطق

(*) صدر للكاتب في مجلة اللسان العربي، عدد 33 (1989م) سبع حلقات في موضوع البحث. وتنشر له المجلة في عددها هذا الحلقات الأربعة الباقية.

بصوتها: «ضرب الأسنان العليا على الشفة السفلى، وانفراج الفكين عن بعضهما البعض».

ب ـــ (اللام) لمعاني الالتصاق، بما يضاهي : «التصاق اللسان بسقف الحنك».

ج ـــ (الميم) لمعاني المص والرضاع والضم والجمع والانغلاق، بما يضاهي : «انطباق الشفتين على بعضهما البعض في ضمّة متأنية حبسا للنفس، ومن ثم انفراجهما على مهل».

وقد أرجأنا الحديث عن حرفي (الثاء والذال) إلى الحلقات القادمة.

3. أما المرحلة الرعوية فقد ورثنا عنها باحتمال شديد باقي الحروف التي عبر العربي بموجبات أصواتها بلا حركات جسدية عن احتياجاته الحضارية والثقافية: طريقة راقية في التعبير لا مثيل لها اليوم في أي من لغات العالم.

الحلقة الثامنة :

المرأة والمرحلة الزراعية

أولاً ـ عود على بدء :

لقد وعدنا القراء في الحلقة الأولى، أن لا نعتمد في تصنيف مراحل إبداع الحروف العربية إلى غابي، فزراعي، فرعوي، غير الأدلة اللغوية، «إلا عند الضرورة».

وما أحسب أن ثمة ضرورة ألحّ منها الآن لاعتماد الأدلة التاريخية والأثرية والدينية والاجتماعية والاقتصادية وما إليها، للبرهان على تعاقب مرحلتي الزراعة فالرعي، بزعامتي المرأة فالرجل، تثبيتا للأدلة اللغوية.

فالعلاقة بين المرحلتين الزراعية والرعوية لم تقتصر على إفراز العلاقة الجدلية بين الإيمائي التمثيلي والإيحائي في معاني الحروف العربية، وإنما تجاوزت ذلك إلى إفراز العلاقة الجدلية بين الأنوثة والذكورة في مختلف مجالات الحياة على مدى تاريخ الحضارة الإنسانية إلى يومنا هذا. ولقد أوجز (اشبنكلر) أحد فلاسفة القرن العشرين هذه العلاقة الجدلية بينهما بقوله: «المرأة تمثل الطبيعة، والرجل يمثل التاريخ».

استطراد ـــ ما أحسب أن أحدا قد كشف عن دور المرأة الحضاري بأدق مما قاله «لويس ممفورد»: «لقد ترك وجود المرأة أثره في كل جزء من أجزاء القرية، لاسيما منشآتها المادية، بما تحويه من الأسيجة الواقية، وهي تنطوي على معان رمزية لم يستطع التحليل النفسي الكشف عنها إلا مؤخرا. وكلها تتخذ أشكالا مادية تعرب عنها في البيت والفرن وحظيرة الماشية وصومعة

الحبوب وصهريج الماء وحفرة التخزين ومخزن الغلال. كما يمتد أثرها إلى المدينة في السور والخندق، وفي كل الساحات الداخلية في المباني، من الردهات إلى الرواق».

«فالبيت والقرية وفي نهاية المطاف المدينة، ما هي إلا صورة مكبرة للمرأة. وان المباني البدائية القديمة، والمنازل والحجرات والقبور، كانت عادة مستديرة كالإناء الأصلي الذي وصف في قصص الإغريق بأنه صنع على نمط ثدي افروديت». (المدينة على مر العصور ج 1 ص 21).

وأرى أن ثمة علاقة رمزية أيضا بين نشأة القبة العربية وبين الثدي، قبل أن يصنع ذلك الإناء الأصلي بآلاف كثيرة من الأعوام. فالقبة جاءتنا إرثا شرعيا عن الأكواخ الطينية الخشبية المستديرة التي عثر عليها في أغوار الأردن منذ الألف (12) ق.م فظل ذلك النمط سائدا في بلاد الشام حتى الألف (8) ق.م، ولا نزال نشاهد نماذج منه في بعض الأرياف السورية حتى الآن.

ثانيا ـ حول زعامة المرأة في المرحلة الزراعية :

لقد صعدنا في الحلقات السابقة بكثير من الثقة والطمأنينة إلى ما قبل التاريخ بأجنحة زاخرة بالقوة والحيوية من خصائص الحروف الإيمائية التمثيلية، وعلى هدي المعاجم اللغوية، إلى نشأة اللغة العربية البكر في المرحلتين الغابية فالزراعية.

ولكن قبل أن ننهي رحلتنا اللغوية التاريخية هذه، هبوطا في طريقنا إلى المرحلة الرعوية وحروفها، نرى أن نتعرض هنا لبعض الشكوك المتوقعة حول ما توصلنا إليه من نتائج.

فلئن اقتنع السادة القراء بانتماء الحروف العربية إلى مراحل غابية وزراعية ورعوية، إلا أن البعض منهم، ولرواسب رعوية ذكورية، قد ينكر علينا إسناد زعامة المرحلة الزراعية وحروفها إلى المرأة ذات البنية الهشة الضعيفة، وليس إلى الرجل الصلب القوي. ولو أننا في عهد محاكم التفتيش يوم كان فقهاؤها يتساءلون عما إذا كان للمرأة روح كما للرجل، إذن لطالب هذا البعض بإحالتي إلى آلات تعذيبها.

وعند هذا الفاصل بين المرحلتين الزراعية والرعوية، يستحسن بنا أن نتناول ولو باقتضاب شديد بعض الشواهد التاريخية والأثرية والدينية على زعامة المرأة في المرحلة الزراعية دعما للأدلة اللغوية.

فبتقصي الآثـــار المكتشفـة في واديـــي الرافدين والنيل وفي بـلاد الشام (سورية + الأردن + فلسطين)، قـــــد تبين لي أن الجزيرة العربية هي مهد الحضارات التي نشـأت في هـذه المنـاطـق الثـلاث. فمـع الموجات البشريـة التي طردها جفـاف ما بعـد العصر الجليـدي الأخير مـن ربـوع الجزيرة العربيـة منذ الألف(9) ق.م، قد تسرب إلى المناطق المجـاورة لها، ألف عام بعـد ألفٍ صنـاعتـا الـزراعة واستئنـاس الحيوان مصحوبتين بعبادة المرأة الأم، ثم تلتهما صناعة الرعي مع عبادة الكواكب.

ولما كـانت بـلاد الشـام هي الامتـداد الطبيعـــي والبشري والغـــذائي والثقـــافي المباشر للجزيرة العربية على مدى التاريخ، سأعتمد هنا كتاب (الوحدة الحضارية في بلاد الشام)، لمؤلفه (جاك كوفان) ترجمة قاسـم طوير. فمـؤلفه أستاذ التـاريخ في جـامعة (ليـون) الفـرنسيـة، قد سـاهـم بالحفـريات الأثريـة التي أجـرتها إحدى البعثات الفرنسية في المريبـط وتل الشيخ حسن، حتى عام 1974 ـ كما أن تواريخ الأثار المكتشفـة بين الألفين (12ـ6) ق.م، قد تـم تحديدهـا جميعا بطـريقة تحليـل الفحم(14) الحديثـة الفائقـة الـدقة، ممـا يغطي ذلك الفاصل الزمني بين المرحلتين الزراعية والرعوية موضوع اهتمامنا.

1 ـ يؤكد المؤلـف أن البشرية لم تنتج القـوت (الزراعـة وتأهيـل الحيوان) قبـل الألف(8) ق.م، وأنه قـد نضجت في بـلاد الشـــام بين الألفين(9ـ6)ق.م جملـة مـن التحولات الحضـارية قبل أي مكـان آخر في العـالم. ولكنـه يقرر بـأنـه لم يلمـس أسبابها وتطـوراتها إلا بقدر ضئيـل جدا (ص70). وهذا الجهل يشير إلى أن أصول هذه التحـولات الحضارية، وفي مقـدمتها إنتـاج القـوت قد جـاءتها مـن الجزيـرة العربية الأم.

2 ـ لا حـظ المؤلف : «اختفـاء مفجعا للحضـارة النطـوفية في بـلاد الشـام بين الألفين (9ـ8) ق.م وقيام حضارة جـديدة على يد أناس جدد» (ص 42ـ43). وهؤلاء النـاس الجدد الـذيـن لم يعـرف (جـاك كوفان) مـن أين قدموا، كـانوا في الحقيقة من الجزيرة العربية.

3 ـ كانت الغالبيـة العظمى من الدمى التـي عثـر عليهـا في بـلاد الشـام حتـى الألف(8) ق.م، حيـوانيـة، ممـا يشير إلى عبادتها. وكانـت إحدى الدمى الإنسـانية تمثـل زوجـا بشريا متنـاسـق الأعضـاء ورشيقها في وضع عاطفي، مما يشير إلى تقـديـس الجنـس على رأي المؤلـف. (ص. 150ـ 152).

4 ـ ظهرت بعض الدمى النسائية في أوائل الألف (8) ق.م، لا تناسق في أعضائها ولا رشاقة، وكانت ذات سمات مشتركة من حيث التجسيم الكامل والواقعي لجسد المرأة العاري، مع ظاهرة تضخيم الورك والمؤخرة. وقد أطلق على هذا النموذج الذي شاع في بلاد الشام طوال ألفي عام تارة اسم «الربة الكبرى» وتارة اسم «ربة الزراعة» (ص 152ـ153). وهذا يشير إلى انسياح عبادة المرأة مع إنتاج القوت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام.

5 ــ بدأت التماثيل الأولى للرجل بالظهور حوالي (7000)ق.م، إلا أن الغلبة كانت للدمى النسائية طوال الألفين (8ـ7)ق.م، وهذا يشير إلى أن سلطة الرجل لم تبدأ في بلاد الشام إلا بعد ذلك التاريخ على أيدي الرّعاة الذين بدؤوا بالاستيطان فيها حوالي (6200) ق.م. (ص. 152 + 158 + 166). مع التذكير بأن الحياة الرعوية بدأت في الجزيرة العربية منذ الألف(10)ق.م. بترجيح شديد.

6 ــ لاحظ العالم الأثري (لوروا غورهان) إن السوية الأولى في (تل الأسود) قرب دمشق الخالية من الزراعة لم تحتو إلا على دمى حيوانية. أما السوية الثانية التي ظهرت فيها أدلة على وجود الزراعة، فقد ظهرت فيها دمى بشرية، أي نسائية. (هامش ص168 + ص154) وهذا يشير إلى حتمية سيادة المرأة في المرحلة الزراعية.

7 ــ شوهد في السوية الرابعة من المريبط لعام (7650ــ 7300)ق.م. قبر شبه بيضوي منتفخ الشكل يستند إلى جدار. وكان الهيكل العظمي لصاحبه في حالة القرفصاء، في وضع مماثل لوضع الطفل في بطن أمه (ص 66). وهذه الطريقة في دفن الموتى تشير إلى طقوس دينية ترتبط بالربة الأم في ظل مقولة مفترضة: (من البطن الحاني إلى البطن الحاني يعود)، مصداقا لما قرره (لويس ممفورد) آنفا.

وهذه الأدلة التاريخية والأثرية على قلة ما سردنا منها وإيجازه، تبين لنا أن المرأة الأم كانت زعيمة المرحلة الزراعية في الجزيرة العربية. فاستمرت في فرض عبادتها وقداستها على الرجل بعد نزوحها إلى بلاد الشام حتى أوائل المرحلة الرعوية. وهكذا كان من طبيعة الأمور أن تتولى هي، وليس الرجل إبداع ما يلزم مرحلتها الزراعية في الجزيرة العربية من وسائل التواصل الإيمائي

التمثيلي على وجه ما بيناه في الحلقة السابقة.

ولو أن الرجل كان هو زعيم المرحلة الزراعية وصاحب حروفها، لكان فرض عليها عبادته وتقديسه كما فعل في مرحلة رعوية لاحقة.

وحكاية ترويض (أنكيدو) عشير الوحوش في أسطورة (جلجامش) على يد إحدى غانيات معبد بابل ذات الحضارة الزراعية، يمكن اعتبارها رمزا تراثيا موروثا على ترويض الرجل الغابي على يد المرأة الزارعة في الجزيرة العربية الأم.

الحلقة التاسعة :

حول سيادة الرجل في المرحلة الرعوية

أولا ـ في المجتمعات الزراعية :

لقد عرضنا في الحلقة السابقة أن الدمى النسائية المقدسة في بلاد الشام ظلت هي الغالبة طوال الألفين (9ـ 8) ق. م، على الرغم من ظهور التماثيل الأولى للرجل عام (7000) ق.م.

فهذه الظاهرة من التزاحم بين تماثيل الرجل والدمى النسائية على منصات القداسة طوال ألفي عام تشير في حد ذاتها إلى واقع النزاع بينهما على الزعامة في المجتمع الزراعي.

ولكن الأساطير السومرية والبابلية والكنعانية والمصرية توضح لنا كثيرا من ضروب العلاقة بينهما في تلك المجتمعات الزراعية. إيجابيها وسلبيها على حد سواء.

فأسطورة التكوين البابلي (الإينوما إيليش) مثلا، تلخص مراحل النزاع بين الرجل والمرأة في أقسى صوره وأوضحها.

فبمعرض الخلاف بين الإله (ابسو) وزوجته (تعامة) بصدد طيش أبنائهما الشباب، تنتصر لهم ويقوم أحدهم (ايا) بقتل أبيه غيلة. وذلك يرمز إلى تفوق المرأة المؤلهة على الرجل في أوائل المرحلة الرعوية في المجتمع الزراعي. ولكن يتم قتل (تعامة) ذاتها فيما بعد على يد أحد أحفادها، البطل (مردوخ) ذو المواصفات الرعوية، في معركة رهيبة يستخدم فيها كل منهما ما أنتجته مرحلته من الأسلحة، وبما يتوافق مع خصائص جنسه. وتنتهي الملحمة بقيام (مردوخ) بتنظيم الكون الجديد على أسس جمالية أخلاقية. وهذا يشير إلى قيام الرجل الراعي بانتزاع السيادة من المرأة بقوته وخبرته وحكمته وروحه الشاعرية.

أما النزاع بين الرجل والمرأة في أسطورة (جلجامش) فتأخذ طابعا أقل حدة بين الآلهة (عشتار) ربة الحب، و (جلجامش) البطل. ينتصر هو عليها في

الجولة الأولى بقتله الثور السماوي الذي خلقه أبوها (آنو) للقضاء عليه جزاء رفضه الزواج منها وتحقيرها. وتنتصر هي في الجولة الثانية بمعونة الآلهة بإماتة صديقه (أنكيدوا)، فيهيم على وجهه في الغابات حزنا عليه.

وتنفرد أسطورة التكوين الكنعاني عن غيرها بإبراز ظاهرة الوفاق بين المرأة والرجل في مجتمع زراعي عريق. فالصراع هنا يقع بين (بعل) رب المطر والصواعق والسحاب، وبين (يم) إله النهر، فتنحاز (عناة) ربة الحرب والدمار والخصوبة الكونية لحبيبها وسيدها (بعل). وتنتهي الأسطورة بزواجهما السعيد.

وقريب من ذلك ما جاء في أسطورة التكوين الخاصة بمدينة (نيبور) السومرية التي تحكي قصة غرام الإلهة الشابة (ننليل) بالراعي (أنليل). يفتنها ويعتدي عليها فيستولدها إله القمر (نانا). ثم يفر منها إلى العالم السفلي، فتحلق به ويستولدها آلهة أخرى لذلك العالم.

فهذه الأساطير إنما هي نماذج خاصة من المستحاثات الأثرية التي استطاعت بأسلوبها الشاعري الرمزي أن توصلنا بمجمل العادات والتقاليد والروابط الاجتماعية والعقائد والأفكار التي كان أبناء شعوب المنطقة العربية يتوارثونها على صفحات الذاكرة جيلا بعد جيل قبل التدوين بآلاف كثيرة من الأعوام.

ثانيا ـ في المجتمعات الرعوية :

أما الرجل في المجتمع الرعوي، فإنه لم يجد أي صعوبة في انتزاع الزعامة من المرأة خلال هذه المرحلة الجديدة التي صنعها بنفسه لنفسه.

فالأسلحة التي شرعها في وجه المرأة الأم المؤلهة لم تقتصر على قوته الجسدية وخبرته القتالية وملكيته للقطيع فحسب، وإنما تعدتها أيضا إلى سلاح روحي جديد أشد حسما، هو عبادة القمر مفتاح العبادات السماوية.

فالقمر هو أعظم كواكب الليالي ونجومها حجما وأكيسها استدارة وأسطعها ضوءا، وأبهاها طلعة وأشدها ارتباطا بمصيره.

نوره في مظلمات الليالي يشيع الأنس في نفوس رعاة الجزيرة العربية في بادية موحشة لا أنس فيها ولا أمان ولا اطمئنان.

مساره على فلكه في السماء يحدد لهم مواقعهم على الأرض، فيعرفون صحيح مسالكهم في متاهات صحاريها وبواديها.

أهلّته المتكررة تحدد لهم شهورهم وأعوامهم، فيعرفون مواقعهم الصحيحة في تيار الزمن.

وجوهه المتغيرة في كل ليلة تعيّن لهم أيام الأسابيع. فكان الأسبوع سبعة أيام بما يعدل ربع الشهر القمري. ثم كانت الحروف العربية فيما بعد(28) حرفا بعدد منازله. أربعة عشر منها قمرية تظهر معها (لام) التعريف بعدد منازله الظاهرة، وأربعة عشر شمسية تختفي معها (لام) التعريف بعدد منازله المخفية.

ولقد عبدوا القمر باسم الإله (سين) منذ الألف(9) ق.م. فقد عثر في السوية الثالثة من المريبط في سورية (8000 ـ 7600) ق.م. على أحد جدران المسكن(47) طبقة سميكة من الطين الأصفر على هيئة هلال، بطول(60) سم وعرض(20) سم (الوحدة الحضارية في بلاد الشام ص(51+142). وهذا يشير إلى أن عبادة القمر قد نزحت من الجزيرة العربية مع النازحين.

وهكذا لم تستطع المرأة أن تصمد في المجتمع البدوي أمام هذا المنافس الجديد. فهو الأروع جمالا والأسمى مقاما والأقدس مظهرا والأنقى بشرة والأكثر نجدة والأشمل رعاية، والأصدق مواعيد في مساره ووجوهه وأهلته.

وفوق ذلك كله، كانت عبادته هي الأدعى لتوحيد عقائد رعاة الجزيرة العربية وقيمهم الجمالية والأخلاقية ومثلهم العليا، يستوحونها من خصائصه وصفاته أنى حلّوا وأنى ارتحلوا.

ولقد كان له في غور الأردن بأريحا أعظم معابده، يحج إليه الناس من سائر المناطق العربية، على مايؤكده (ويل ديورنت) في قصة الحضارة الحديثة. كما كانت أرض سيناء تدعى (أرض القمر).

ثالثا ـ حول أبعاد الصراع بين المرأة والرجل في اللغة العربية :

لئن أولينا هذه العلاقة الجدلية بين الذكورة والأنوثة، في هذه الحلقة التي قبلها، شيئا من الاهتمام في بحثنا اللغوي هذا، فذلك لأنها تشكل واحدا من أعمق الجذور الثقافية التراثية في «الشخصية العربية». ولقد كان لهذه العلاقة الجذر بينهما أبعاد أيضا في اللغة العربية، لا يزال الكثير منها خفيا لم يحظ بما يستحقه من اهتمام علماء اللغة العربية وفقهائها.

لقد ساهمت التقاليد الرعوية على مدى آلاف الأعوام في ترسيخ سيادة الرجل على المرأة، ولكن الإنسان العربي قد

كرس هذه السيادة أبد الدهر في لغته بالكثير من قواعدها وأصولها المحكمة، كما في الأمثلة التالية:

1 — لقد اختار النون لرقتها وشاعريتها، وما يوحيه صوتها في نهاية المصادر من معاني الخفاء والاستكانة والاستقرار (كما أسلفنا في حلقة سابقة)، فألحقها بكلمة (أب)، ولم يلحقها بكلمة (أم). وذلك ترسيخا لقاعدة إلحاق الأبناء بالآباء في المجتمعات الرعوية وليس بالأمهات، على العكس مما كان حالهم وحال الأزواج في المرحلة الزراعية.

2 — كما ألحق هذه (النون) الأنيقة الرقيقة المستكينة في نهاية الأفعال والأسماء والحروف وجعلها علامة للإناث: (سمعن ـ حديثهن — عنهن..)، وذلك بمقابل ما جعل (الواو) ذات الفعالية والاستمرار (كما أسلفنا في حلقة سابقة)، ضميرا للذكور: (سمعوا).

3 — ثم اختار (التاء) الضعيفة الشخصية، ذات الصوت الباهت، لا صفاء فيه ولا أناقة ولا رنين ولا فعالية، ولا ما يوحي بأية مشاعر إنسانية، فجعلها علامة للتأنيث. وقد ألحقها بالأسماء المذكرة من درجات القرابة وسواها، كناية عن تقدم المذكر على المؤنث وأفضليته: (زوج، زوجة ـ إبن — إبنة ـ أخ، أخت ـ عالم، عالمة..). ما سلم من هذا التسلط الذكوري على درجات القرابة المؤنثة سوى لفظة (أم)، وذلك لأنها جاءتنا إرثا عن مرحلة زراعية أعرق في القدم من المرحلة الرعوية كما أسلفنا.

أما درجة القرابة (كنّة) مؤنث (صهر) فهي وإن استقلت عنه بكلمة خاصة، فسلمت بذلك من التسلط الذكوري ظاهريا، إلا أن العربي قد أبدعها في المرحلة الرعوية خصيصا لتحديد موقعها الثانوي في أسرتها الجديدة، بتسلط ذكوري أشد إحكاما وتحكما.

فلفظة (صهر) بحروفها الرعوية قد اشتقها العربي من الانصهار، لمعاني التفاعل والتمازج، عنوان حيوية وفعالية. وذلك على العكس من لفظة (كنة)، المنتهية بنون (الإناث) وتاء (التأنيث): فهي لمعاني الرقة والضعف والاستكانة والاستقرار، عنوان خفاء وتبعية. وذلك بأفضلية موقع الصهر في أسرة حميّه التي ينصهر فيها، على موقع (الكنة) في أسرة حميها التي تستكين فيها ولا تنصهر.

رواسب رعوية ذكورية لا تزال ماثلة في تقاليدنا وعاداتنا وعواطفنا وروابطنا، لم يتحرر المجتمع العربي الرعوي منها حتى الآن إلا قليلا.

الحلقة العاشرة:

الحروف الرعوية ومعانيها

أولا ــ حول صعوبة استيحاء معانيها :

لقد تحدثنا في حلقة سابقة عن كيفية استخلاص معاني الحروف الزراعية من خصائصها الإيمائية التمثيلية. وما أحسب أن القارىء قد اعترضته أي صعوبة في الاهتداء إلى معانيها، بمجرد الانتباه إلى الحركات التي ترافق النطق بأصواتها.

أما استخلاص معاني الحروف الرعوية من صدى أصواتها في النفس، فهو يتطلب شروطا خاصة لابد من توافرها في الباحث عنها.

فمعظم دكاترة اللغة العربية وطلابهم يجزمون اليوم بأن الحرف العربي لا معنى له. وأن الكلمة العربية مجرد مصطلح لا علاقة لمعناها بأصوات أحرفها. وذلك تأثرا منهم بالمدارس اللغوية الغربية جيلا يعلم جيلا، فلا تلحظ أبصارهم دلالات طرق النطق بأصواتها ولا تنتبه أسماعهم إلى صدى أصواتها في النفس.

يقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه (دراسة في فقه اللغة): (لا قيمة للأصوات والكلمات والصيغ والتراكيب إلا بمقدار ما يتعارف المجتمع على أنها رموز لدلالات).

والأستاذ محمد المبارك يتساءل في كتابه(فقه اللغة) الذي ألفه في شبابه بعد تخرجه من جامعة السربون الفرنسية.

«أليست هذه الألفاظ أشبه بالرموز الرياضية؟ أليست أشبه بالنقود التي يرمز بها إلى القيم؟». ص(15).

ولكنه قد رجع عن رأيه هذا في كتابه «خصائص العربية» فيقول:

«.. كما إني وجدت تقابلا عجيبا وتشابها واضحا بين اللغة العربية والطبيعة.. انكشف لي ذلك تدريجيا في أثناء سيري في البحث اللغوي خلال سنين طويلة..». ص(228). ثم يعترف صراحة فيقرر:

«إنني أقول في غير تردد : أن للحرف في اللغة العربية إيحاء، ويثير في النفس جوا يهيىء لقبول المعنى ويوحي إليه ويوحى به» ص (260).

فكيما يستطيع الباحث أن يكتشف العلاقة الفطرية الكائنة بين أصوات الحروف العربية ومعانيها، لابد له أن يتمتع برهافة سمع وشفافية مشاعر، وتذوق أدبي رفيع، ومعاناة طويلة مع تلونات أصوات الحروف العربية، كما

وقع للأستاذ المبارك. أما الذي لا يتمتع بالحدود الدنيا من هذه الشروط جميعا، فسيجد مسألة معاني الحروف العربية مجرد توهم في أذهان القائلين بها لا رصيد لها من حقيقة.

وعلى الرغم من ذلك يمكن التخفيف عن الباحث أو القارىء من هذه الصعوبات بمعرض التقصي عن معاني الحروف العربية وذلك باتباع النهج الذي عرضناه في الحلقة (الثالثة)، وملخصه:

أ ـــ البحث مسبقا عن الخصائص الإيمائية والإيحائية في الحرف المعني.

ب ـــ الرجوع إلى المعاجم وانتقاء الجذور الألصق معان بالطبيعة، مما يشارك هذا الحرف في تراكيبها.

ج ـــ اختيار المعنى الحسي لكل جذر منها، دون المعنوي. فالأصل في الجذور ومعانيها هو الفطري الحسي، وليس المعنوي المجرد الذي جاء لاحقاً في مراحل لغوية متطورة.

وهكذا نستطيع بسهولة أن نستخلص المعاني الأصيلة التي أبدع الحرف العربي للتعبير عنها ابتداء، أو التي وظفها للتعبير عنها في مراحل لغوية متطورة، كما لحظنا ذلك في معاني حرف (اللام)، في الحلقة السابقة.

نهج موضوعي يتوافق مع مراحل تطور اللغة العربية. ولذلك من المحال على الباحث أن يهتدي إلى معاني أي حرف إذا لم يلتزم بهذا النهج، ولو اهتدى إلى بعضها عفو رهافة سمع وشفافية مشاعر وتذوق أدبي رفيع ومعاناة طويلة مع أصوات الحروف، كما وقع لابن جني والعلايلي والأرسوزي والمبارك وابن زيدان، وغيرهم كثير.

ثانيا ـــ فما هي الحروف التي تعنينا وما معانيها ؟ :

اختصارا شديداً للبحث سنكتفي باستخراج معاني الحروف الرعوية وما بقي من الحروف الزراعية التي يكثر دورانها في حروف المعاني، وكذلك ما يدخل منها في تراكيب حروف المعاني الهامة الكثيرة الاستعمال.

وحذر الإطالة سنكتفي بالكشف عن بعض معاني كل حرف منها مما يفيدنا في معرفة معاني حروف المعاني التي تدخل في تراكيبها.

لقد استخرجنا في الحلقات السابقة معاني الحروف الغابية جميعا (الهمزة والألف اللينة والواو والياء)، ومعاني ثلاثة من الحروف الزراعية (الفاء والميم

واللام) وبقي منها (الثاء والذال).

لذلك سنعمد إلى استخراج معاني الحروف التالية :

«الباء ـ التاء ـ الثاء ـ الذال ـ العين ـ الكاف ـ النون ـ الهاء».

1 — حرف (الباء) :

يبدأ تشكل صوت هذا الحرف بضم الشفة على الشفة بشيء من الشدة حبسا للنفس. وبانفراجهما الفجائي عن بعضهما، ينفتح الفم واسعا، ويحدث صوته الانفجاري.

وبذلك كانت له خصائص إيمائية تمثيلية مستمدة من طريقة التلفظ بصوته. فكان ثمة(86) مصدرا من أصل (292) مصدرا جذرا تبدأ به لمعاني الانبثاق والظهور والاتساع والامتلاء، بما يتوافق مع ظاهرتي انفراج الشفتين وانفتاح الفم عند خروج صوته.

أما خصائصه الإيحائية التي تعنينا، فهي مستمدة من طبيعة صوته الانفجاري. فكان ثمة(53) مصدرا جذرا تبدأ به لمعاني الحفر والشق والبعج والقطع والشدة، بما يتوافق مع صدى صوته الانفجاري في النفس، منها:

«بأر البئر (حفرها). بتّ الشيء وبتره وبتعه وبتكه وبتله وبركعه، وبرشق اللحم وبشقه وبضعه بمعنى (شقه) بجّ الشيء وبذحه وبعج البطن وبقره وبحر الأرض بمعنى (شقها). بحث بخص عينه (فقأها)».

2 — حرف (التاء) :

صوته الباهت المتماسك، يوحي بملمس بين الطراوة والليونة، وكأن الأنامل تجس وسادة من قطن، أو كأن القدم الحافية تطأ أرضا من الرمل الندي. ولا يوحي صوته بأي إحساس حسي آخر، أو بأية مشاعر إنسانية.

كان لمعاني الرقة والضعف والأشياء التافهة بما يتوافق مع صدى صوته في النفْس(18) مصدرا من أصل (100) مصدر جذر تبدأ به. منها:

«تبتب (شاخ). التبن. تخّ. التراب. تفتف (اتسخ بعد نظافة). التفّ (وسخ الظفر) ـ تفه. تك الرجل (حمق). التلب. التين».

وكان في المصادر التي تنتهي به(23) مصدرا لهذه المعاني من أصل(97) مصدرا منها.

«بلت (انقطع عن الكلام حياء). خبت. ختّ. سكت. الشخت (الضامر خلقه). صمت. قلت فلان (فسد وقل لحمه). الفتات. نات (تمايل لضعف أو نعاس).

الوتاوت (الوساوس). فكانت (التاء) من ضعف الحروف شخصية، لتتأصل بذلك خاصية الضعف في معانيها.

3 ــ (الثاء والذال) بين الأنوثة والذكورة :

لقد أبدعت المرأة الأم أصلي لثغتيهما في المرحلة الزراعية تعبيرا إيمائيا تمثيليا عن جنسي الأنوثة والذكورة، كما ذكرنا سابقا. فهما حرفان لثويان، ليس ثمة في اللغة العربية حرفان اثنان ألصق منهما مخرج صوت، ولا أكثر تطابقا في طريقة التلفظ بهما. وهذا ماحدا بالدكتور إبراهيم أنيس إلى التوهم بأنه: «لافرق بين صوتي (الثاء والذال) إلا الهمس بالثاء والجهر بالذال».

فكلاهما يتشكل صوته عبر ذات المراحل الثلاث التالية:

أ ـ يشق طرف اللسان الأسنان العليا قليلا عن السفلى، وإذا فخم صوت (الذال) برز طرف اللسان من بينهما.

ب ــ يندفع النفس بين الأسنان العليا وطرف اللسان بشيء من البعثرة والتشتت، ولكن بفروق بينهما.

فمع الثاء يندفع النفس ببطء ورخاوة، ومع الذال بسرعة وشدة.

ج ــ يسمع لاحتكاك النفس بالأسنان العليا عند خروجه مع (الثاء)، حفيف فيه لين وطراوة، أما مع (الذال)، فيسمع لاحتكاكه ذبذبة صوتية عالية.

وهكذا على الرغم من تقارب مخرجي صوتي هذين الحرفين وتطابق طريقتي التلفظ بهما ملثوغين، فإن ثمة فروقا أصيلة بينهما على مثال ما في الأنوثة والذكورة من تقارب وتطابق، ومن فروق أيضا.

1 ــ فمخرج صوت (الثاء) أقرب إلى جوف الفم من مخرج الذال. وذلك كناية عن ظاهرتي الخفاء والحشمة في الأنوثة، وعن ظاهرتي البروز والظهور في الذكورة في المجتمع الرعوي.

2 ــ أما التناقض بينهما، فهو أشد ما يكون في إيحاءاتهما الصوتية تعبيرا عن المعاني. وذلك على مثال ما كان التناقض بين الأنوثة والذكورة على أشده في وظائفهما ومهامهما في المرحلة الرعوية. فإذا كان صوت (الثاء) الملثوغة يدغدغ طرف اللسان بكثير من المرونة والطراوة، ويوحي بالدماثة والملمس الدافىء الوثير، فإن صوت (الذال) الملثوغ أشد توترا وألذع مذاقا وأكوى حرارة وأوخز ملمسا. ليشف بذلك صوت كل حرف منهما عن خصائص الجنس الذي يمثله.

فماذا عن هذه المزاعم على واقع المعاجم اللغوية ؟

أ- حرف الثاء

لهذا الحرف خاصيتان تمثيليتان وواحدة إيحائية، لثلاث فئات من المعاني:

1 - لمعاني الشق والانفراج والسيلان بما يتوافق مع ظاهرة شق الأسنان العليا عن السفلى بطرف اللسان، عند بداية تشكل صوته. وكان لها(17) مصدرا تبدأ بالثاء من أصل(94) مصدرا جذرا. منها:

«الثأي (الفتق). ثعرر الأنف (تشقق). ثغب الشاة (ذبحها). الثغر. الثلم...».

2 - لمعاني البعثرة والتشتت والتخليط، بما يتوافق مع ظاهرة بعثرة النفس عند خروج صوته وكان لها(17) مصدرا تبدأ به. منها:

«ثرثر. ثرد الخبز وثمأه (فته). ثر. ثط (خف شعر لحيته). ثعر (كثرت بثوره). الثلج. ثار (هاج وانتشر)...».

3 - لمعاني الرقة واللين والبضاضة ومتعلقات الأنوثة، بما يتوافق مع صدى صوته في النفس. وكان لها(21) مصدرا تنتهي بالثاء من أصل(83) مصدرا جذرا. فصوت (الثاء) الأنثوي، إنما هو أوحى بخصائصه في نهاية المصادر، كما لحظنا في الحلقة (الثالثة). منها:

«أنث (لان)، ومنها الأنوثة والأنثى. البُهْثَة (البشر وحسن اللقاء). رعث الصبي أمه (رضعها). الطمث. الرفث. خرثت المرأة (ضخمت خاصرتاها واسترخى لحمها). خنث الرجل. دمث. ماثت الأرض (لانت). داث ديثا (لان وسهل).

ملاحظة :

لئن كان لمعاني البعثرة والتخليط والجمع العشوائي (44) مصدرا جذرا تنتهي بالثاء، إلا أننا لم نعثر فيها على أي مصدر يدل معناه على الشق والانفراج والسيلان. وذلك لأن طرف اللسان مع (الثاء) في نهاية الكلمة يستقر في وضعه الأخير بين الأسنان العليا والسفلى، فلا تنفرجان عن بعضهما البعض.

ب - حرف الذال :

وكما لحرف الثاء، فإن لحرف (الذال) خاصيتين إيمائيتين وواحدة إيحائية، لثلاث فئات من المعاني.

1 - لمعاني الاهتزاز والاضطراب وشدة التحرك بما يتوافق مع ظاهرة الاهتزاز في صوته. فكان لها (11) مصدرا من

أصل (58) مصدرا جذرا تبدأ به، منها:

«ذبّ (لم يستقر في مكان). ذبح. ذأل (مشى مسرعا). ذقّ الطائر (أسرع). ذمل البعير (سار سريعا لينا). ذهب. الذَّنَب والذَّيل (لظاهرة الذبذبة في تحركهما).

2 ــ لمعاني البعثرة والانتشار بما يتوافق مع بعثرة النفس في صوته الملثوغ وكان لها (11) مصدرا.

منها :

«ذرأ الأرض (بذرها). ذراه (فرقه وبدده). ذفر المسك (اشتدت رائحته وانتشر). ذراه ذروا (طار في الهواء وتفرق). ذاع الخبر. ذرف الدمع. ذرح الشي في الريح (ذراه). ذاب الشحم.

3 ـ لمعاني الشدة والفعالية والقطع بما يتوافق مع موحيات صوته وكان لها(19) مصدرا منها:

«ذأمه (طرده) الذئب. ذحّ الشيء (دقه وشقه). ذرب السيف (صار قاطعا). الذراع. سم ذعاف. الذكورة. ذلق اللسان. ذيأه (قطعه). الذهن (الفهم والعقل والقوة). ذمه اليوم (اشتد حره). ذئِر (أنف وغضب). ذمر (غضب)».

الحلقة الحادية عشرة:
الباقي من الحروف الرعوية ومعانيها

لقد استخرجنا في الحلقة الرابعة معاني (الهمزة والألف والواو والياء)، وفي الحلقة الخامسة وظائف (الفتحة والضمة والكسرة)، وفي الحلقة السادسة معاني (الفاء والميم واللام)، وفي الحلقة السابعة معاني (الياء والتاء والثاء والذال). وبقي علينا أن نستخرج في هذه الحلقة معاني حروف (الكاف والنون والهاء والعين). وهذا كل ما يلزمنا لمعرفة معاني أهم حروف المعاني وأصول استعمالها.

أولا ـ حرف الكاف :

هو عند العلايلي والأرسوزي (للاحتكاك). وهذا صحيح.

ففي الوقع، إذا لفظ صوته ممطوطا بعض الشيء، ومخفوتا به قليلا، ومضغوطا عليه بلا تفخيم، يخرج النفس بين اللهاة وسقف الحنك بشيء من الاحتكاك، بما يحاكي صوت احتكاك الخشب بالخشب. ولعل العربي قد اقتبسه عفو الفطرة من صوت هذا الحدث في الطبيعة.

وعلى الرغم من تنوع خصائص هذا الحرف وكثرة معانيه، فإنه لايعنينا منها بمعرض الحديث عن حروف المعاني إلاّ خاصيّة الاحتكاك. فكان لهذا المعنى(7) مصادر فقط من أصل(186) مصدرا جذرا تبدأ به بنسبة ضئيلة لايعتد بها لتقرير خاصية الاحتكاك في صوته.

أما المصادر التي تنتهي به، فكان منها (15) مصدرا لهذا المعنى من أصل(84) مصدرا جذرا بنسبة تقارب (18%)، مما يؤهل هذه الخاصية أن تكون واحدا من معانيه. منها:

«حكّ ـ دعك ـ دلك ـ شبك ـ شك الشيء (لصق بعضه ببعض). عرك الجلد ومعكه (دلكه) علك. محك (لجّ في المنازعة)...».

ولقد استخلص العربي معنى التشبيه في حرف الكاف، من خاصية الاحتكاك في طريقة التفلظ به، ومن صدى صوته في النفس.

فالتشبيه لغة هو (التمثيل) كما في (رغيفك كرغيفه) وهو عند البيانيين، (إلحاق أمر بأمر لصفةمشتركة بينهما): (زيد كالأسد). وكلا المعنيين يتطلبان إجراء المطابقة بين صفاتهما الحسية أو المعنوية المشتركة بشيء من الاحتكاك المادي أو الذهني.

ثانيا ـ النون :

يقول عنها العلايلي بأنها «للتعبير عن البطون في الأشياء». ويقول الأرسوزي بأنها: «للتعبير عن الصميمية». وكلاهما صحيح.

وهذان المعنيان المتقاربان في (النون) قد تأتيا من طبيعة صوتها الهيجاني الذي ينبعث من الصميم للتعبير عفو الفطرة عن صميم الذات.

على أن (النون) لها معان أخرى تتوافق مع خصائصها المتأتية من طريقة التلفظ بصوتها في أول المصادر وفي آخرها. ولكننا حذر الإطالة سنقتصر هنا على ما يفيدنا في حديثنا المقبل عن معاني حروف المعاني ووظائفها.

أ ـ فإذا لفظت (النون) في مقدمة المصادر بشيء من الشدة، أوحى صوتها بالانبثاق من الصميم، كما قال الأرسوزي. فكان لهذه المعاني (29) مصدرا تدل على أصوات، و (120) مصدرا للانبثاق من الداخل، وذلك من أصل (368) مصدرا جذرا. كان منها للأصوات:

«نأج البوم ـ نبح ـ نحب ـ نخم ـ نخف ـ نشج الباكي ـ نعر ـ نعق ـ نغم ـ النقيق ـ نهق ـ نهت القرد ـ نهم الأسد ـ ناحت الحمام...».

وكان منها للانبثاق:

«نبأ ـ نبت ـ نبع ـ نبغ ـ نتأ ـ نتج ـ نتح ونث ونحج ونشح بمعنى (رشح). نجد المكان ونشز بمعنى (ارتفع). نجم (طلع وظهر). نضح ـ نضخ ـ نطق ـ نظر ـ نزف ـ نفست المرأة (ولدت). نهد الثدي (برز وارتفع). والأفعال في هاتين الفئتين من المصادر لازمة جميعا.

ب ـ وإذا لفظت النون بشدة وتوتر أكثر، أوحى صوتها بالنفاذ في الأشياء. وكان منها (45) مصدرا لهذه المعاني. منها:

«نبث ـ نبش ـ نثل الشيء ونجثه (استخرجه). نخزه ـ نحره ـ نخسه ـ نقب الجدار ـ نقد ـ نقر ـ نكت ـ نكز ـ نكف البئر (نزحها). نهش..» والأفعال في هذه المصادر متعدية جميعاً.

ج ـ أما صوت النون، في نهاية المصادر فيلفظ هناك مخففا مرققا منغما، بما يوحي بمعاني الرقة والأناقة والجمال ومحاسن النساء في المجتمع الرعوي، فكان لها (58) مصدرا من أصل (126) مصدرا جذرا، منها:

«الحسن ـ الحنان ـ امرأة رزان (ذات وفاء وعفاف). زانه (جمله). الغسان (حدة الشباب). العين ـ الفنن ـ لدن (كان لينا) ـ مرن ـ لان ـ الميسون (الغلام الحسن القد والوجه). الوسن (النعاس..).

كما كان منها أيضا (34) مصدرا لمعاني الإقامة والاستقرار والخفاء، بما يتوافق مع صدى صوتها المرقق المنغم منها:

«أتن بالمكان وبن به ودجن به وسكنه ورزن به وعدن به وعمن به وعهن به ومتن به ووثن به ووطن به بمعنى (أقام في المكان) ـ أكن الطائر ووكن (دخل عشه). أمن، الجفن (عطاء العين). جن (استتر). دفن ـ كمن ـ كن (استقر)...».

وهكذا استحقت (النون) بجدارة أن تكون في نهاية الأسماء والأفعال والحروف رمزا (للإناث)، رقة وأناقة وخفرا وحشمة.

ثالثا ـ حرف الهاء :

هذا الحرف يستمد معانيه العديدة من مصدرين اثنين:

أ ـ من طبيعة صوته في الاهتزاز أولا، وفي التخريب ثانيا.

ب ـ ثم من طريقة التلفظ بصوته: إما مشبعا مضغوطا عليه. وإما باهتزازات رخوة، وإما مخففا مرققا مطموس الاهتزازات، وإما مخنخنا به.

وكل واحدة من خصائص هذا الحرف الست، كان لها ما يتوافق مع معانيها في المصادر التي تبدأ به بنسبة بلغت

(90%). فكان هذا الحرف على هشاشة صوته من أقوى الحروف العربية شخصية.

وذلك لأن الإنسان العربي قد وجد في صوت (الهاء) مادة طيعة سهلة التكيف للتعبير بها عن معان تتوافق مع طبيعتها في الاهتزاز والتخريب والاضطراب والخنخنة، مما لا يتوافر في أي مادة صوتية أخرى. فكان أن أكثر العربي من استعماله لهذه المعاني السلبية في متعلقات حياته الذاتية كما سيأتي:

وعلى الرغم من أنه لا يعنينا من خصائص هذا الحرف ومعانيه بمعرض حديثنا المقبل عن حروف المعاني سوى خاصيتي الاهتزاز والتخريب في صوته، فإننا سنستعرض بإيجاز شديد أهم خصائصه الأخرى بمعانيها. وذلك للكشف عن النزعة الفنية الأخلاقية في مقومات الشخصية العربية الثقافية بمعرض تعاملها مع أصوات الحروف ومعانيها.

أ ـ فكان ثمة (31) مصدرا من أصل (280) مصدرا جذرا تبدأ به لمعاني الاضطراب والارتعاش والتحرك السريع بما يتوافق مع صدى صوته المهتز عندما يلفظ بشيء من الشدة، منها:

«هبت الريح وهفت ـ هبا الغبار ـ هز ـ هزهز ـ الهوف (الريح الهوجاء). هاش القوم (هاجوا). هاده هيدا (حركه). الهياج...»

ب ـ وكان منها (31) مصدرا لمعاني التخريب والقطع والسحق والكسر بما يتوافق مع صوت (الهاء) ملفوظا بشيء من الحدة، منها:

«هتم الشيء وهتاه وهثمه وهشمه وهصمه وهاضه وهضمه بمعنى (كسره أو حطمه). هبر اللحم وهذب الشيء وهذاه بالسيف وهزبره بمعنى (قطعه). هرس الشيء وهمق السويق وهمك البطاطس بمعنى (دقه وسحقه). هد البناء وهدمه وهوره بمعنى (هدمه). هرد الثوب وهرضه (مزقه)...»

ج ـ وكان ثمة (77) مصدرا لمعاني الاضطراب والعيوب النفسية والعقلية والأخلاقية، بما يتوافق مع صوته رخوا مخنخنا به بعض الشيء. منها لمعاني الحمق فقط:

«الهبكة ـ والهبنك ـ والهبل ـ والهتر ـ والهجاة والهجرع ـ والهيفك ـ والهلس ـ والهمج والهمق والهبت والهنبع والهوب والهوج والهوس والهوك...» بعضها لمعاني الحمق في الرجال وبعضها الآخر للنساء.

وكان منها (42) مصدرا للتشوهات

والعيوب الجسدية بما يتوافق مع صدى صوت (الهاء) مخنخنا به أيضا، منها:

«تهبرس ـ تهطرس ـ هبع ـ هبرج ـ الهجف ـ هرجل ـ الهرشن ـ هرص ـ الهرطال ـ هرملت المرأة ـ الهالط ـ الهلقام ـ هنبع ـ هنبل ـ الهيف».

وهكذا يكون العربي قد جعل من (الهاء) مصحا للأمراض العقلية وأقام فيه جناحا خاصا للأمراض الجسدية وعللها. وذلك على مثال ما جعل من (الخاء) حاوية قمامة في بنيانه اللغوي الأنيق.

رابعا ـ حرف العين :

لما كان هذا الحرف هو آخر الحروف العربية التي سنتحدث عن خصائصها ومعانيها رأيت أن أتناول كيفية تشكل صوته والمزيد من خصائصه بشيء ما من التعمق، لإعطاء القارئ ولا سيما المعنى بشؤون اللغة العربية فكرة أدق عن بعض أسرار حروفنا على واقع المعاجم اللغوية.

1 ـ حول كيفية تشكل صوته وطبيعته:

يتشكل صوت (العين) بتضييق مخرجه في أول الحلق على شكل حلقة ملساء، ومن ثم بتجميع ذبذبات النفس في بؤرة هذه الحلقة، فيخرج صوته في جوف الحلق نقيا ناصعا، هو أوحى الأصوات بالإشراق والظهور والسمو والفعالية. وذلك على مثال ما تتجمع أشعة الشمس في بؤرة عدسة بلورية مقرِّبة، فيكون الضوء فيها أشد توهجا وسطوعا وحرارة.

وهكذا فإن تشكيل صوت (العين) يتطلب مهارة فائقة في التحكم بعضلات الحلق للمحافظة على ملاستها ودائريتها المناسبة، مما يجعل النطق بصوته عسيرا يستحيل إتقانه على غير الشعوب العروبية (السامية).

ومسألة تجمع ذبذبات النفس في بؤرة الحلقة في أول الحلق، تحاكي تجمع ذبذبات النفس في بؤرة الحلقة التي تشكلها الشفتان لإحداث الصفير. ليكون صوت (العين) هو نوع خاص من الصفير، ولكن في جوف الحلق، وليس خارج الفم.

يقول عنه الدكتور إبراهيم أنيس: «إنه من حيث انعدام حفيفه هو أقرب من الميم والنون واللام، ومن حروف اللين، الألف والواو والياء».

وأخذا بهذا المنطلق من حيث المقارنة بين صوته وأصوات بعض الحروف، نستطيع أن نزيد على ذلك:

فصوته من حيث صفاؤه ونقاؤه، يمت بقرابة مماثلة من حرف (الصاد)، ومن

حيث فخامته فهو غير بعيد في قرابته عن حرف (الضاد). أما من حيث توتره الصوتي فهو ألصق طبيعة بحرف (الزاي).

وهكذا يبدو صوت العين كأنه مزيج من خصائص أصوات هذه الحروف جميعا، له من اللام متانتها وتماسكها، ومن الصاد صفاؤها وصقلها، ومن النون نقاؤها وأناقتها، ومن الضاد فخامتها ونضارتها، ومن الزاي شدتها وفعاليتها، ومن الألف والواو والياء، لينها ومرونتها.

فكان حرف العين بذلك أكثر الحروف العربية أرستقراطية، قد جمع إلى نفسه خلاصة أخيار أصوات الحروف العربية من خصائص وإيحاءات معان.

لا يضير هذا الحرف الأسطوري أن يسيء العرب استعماله فيكثرون من استخدامه لمعان لا صفاء فيها ولا نقاء ولا فخامة ولا سمو، كما سيأتي. فذلك يرجع إلى مرونة مادته الصوتية أولا، ومن ثم إلى نقاء هذه المادة. وهاتان الخاصيتان قد جعلتاه يأتلف مع سائر الحروف العربية باستثناء حرفي (الحاء والغين). فالحاء للتعارض الموسيقي بين صوتيهما. أما (الغين) فللتناقض بين خصائصهما ومعانيهما. فلم يجتمع أي منهما مع حرف (العين) في أي كلمة عربية.

وهكذا كان من المحال على حرف (العين) أن يحمي موحيات السمو والصفاء والنقاء في صوته من معاني الفجاجة والغلظة والاضطراب في الحروف التي تصاحبه. وشأن حرف (العين) في دنيا اللغة العربية كشأن العظماء مع المعيات الرديئة النفوس في دنيا المجتمع على مدى التاريخ. (والكريم يخدع).

2 ـ حول معانيه :

أ ـ كان لمعاني الشدة والفعالية والصلابة والقطع، مما يتوافق مع صوت (العين) مشددا عالي النبرة (125) مصدرا من أصل (664) مصدرا عثرنا عليها في المعجم الوسيط وفي قاموس محيط المحيط لبطرس البستاني. منها (19) مصدرا للأسد و (18) للإبل والناقة، في مختلف أوصافهما. كما كان منها (10) مصادر بمعنى الصلب الشديد.

ب ـ وكان منها (115) مصدرا لعيوب نفسية وجسدية، مما يتصف بالشدة والعيانية والظهور كما في: «العربدة ـ العهر ـ العهّ ـ العمى ـ العمه ـ العور ـ العار ـ العاهة ـ العيب».

ج ـ وكان منها (64) مصدرا لمعاني العظم والظهور والعلو، مما يتوافق مع

(العين) المشـــددة المفخمـة. منهـا (18) مصدرا جذرا للعلو فقط، منها:

«عـب البحـر (كثر مـوجـه وارتفـع). العباهر (الممتلىء الجسم الطويل). عرج في السماء (ارتفع وصعد). العراهل (الضخم الفاحـش الطول). العلو ـــ عاطـت العنق (طالت..).

د ـ وكـان منها (11) مصدرا للصفاء والضياء والعيانية، بما يتـوافق مع صدى صوته في النفس، مرققا منعما. منها:

«عـرب عـروبا (فصـح) ـــ عـرف ـ العـراص (اللمـع المضطرب) ـــ العقـل ـ العلم ـ العين...».

هـ ـــ وكان منهـا (64) مصدرا تـدل معانيها على العقد والربط وأدواتهما، وعلى الفتـل والـدوران، ثم على العـوج والميـل. أسرة من الأحداث يجمع بينها عامل حسي منظور هـو بدايـة حركـة دائرية تكتمـل تارة، وتتكرر تارة أخـرى، وتفشل أحيانا فتظل مجرد عوج أو ميل. وهذه الخاصية في حرف (العين) تتوافق مـع واقع تشكل الحلقة الملساء في أول الحلـق حين خروج صوته بشيء من التواتر والتكرار.

ونظـرا لأهميـة هـذه الخاصيـة في الحديث عن حـروف المعاني سنستعرض المزيد من الأمثلة.

ـ كـان للعقد والـربط وأدواتهما (17) مصدرا منها:

«العبكـة (العقدة في الحبـل) ـ عـرس البعير (شد عنقه إلى ذراعه وهو بارك) ـ العصام (حبـل تشد به القربـة وتحمل). العقـدة ـ عقصـت المرأة شعرهـا ـ عقـل الـدابة (ربطهـا) ـــ عقـط الرجـل (شـد عمامته). عكم المتاع (شده بثـوبه) ـ عكا ذنـب الفرس (عطفـه وعقـده) ـ العـلاط (حبـل يجعـل في عنق البعير) ـــ العنـان. العكال...».

ـ وكان للفتل والدوران وتكرار الحركة (18) مصدرا، منها:

«عبل الحبل وعرقـده وعسده (فتله). عكف (طاف حول الشيء) ـــ عقى العقاب (حـام حول الشيء وارتفـع). العصابـة ـ العمامـة ـ عـاف الطير (دار حـول الشيء يريد الوقوع عليه..)

ـــ وكـــان للعـوج والميـــل واللي (29) مصدرا منها:

«عتش الشيء (عطفـه وأمالـه) ـ عـدل الطريق وعسق الشيء وعصفـه، وعَنَدَ عن الطريق بمعنى (مال). عصد الشيء وعفته وعفص يده وعفش العـود وعقفه بمعنى (لواها). العنكة (مـا تثنى من لحم البطن سمنا) ـ العوج...».

على أننا لم نعثر في المصادر التي تنتهي بحرف (العين) على ما يدل على أي من هذه المعاني سوى كلمة الفدع (العوج في المفاصل). وذلك لأن صوت (العين) يلفظ هنا بلا تواتر ولا تكرار.